ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Rese. Muhammad Ali Kamil Fizzah

Dr. Jasim Freih Dayekh Al-Turabi

Dr. Suad Badie Mutair

Wasit University, College of Education for Human Sciences

Email:
std2024208.Mohammed.A@uowasit.edu.iq
jassamf@uowasit.edu.iq
sbadiee@uowasit.edu.iq

Keywords:

Intertextuality, the Noble Prophetic Hadith, Prophetic Language

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 17. Feb.2026

Accepted 15. May.2026

Published 10. Nov.2026

Intertextuality in the Noble Prophetic Tradition

A B S T R A C T

This research in its overall structure revolves around studying intertextuality as a textual criterion in the Noble Prophetic Hadith. It aims to demonstrate the influence of the language of the Holy Qur'an on the Prophetic language, and to show the extent to which the words of the Great Prophet are imbued with the meanings and rhetorical styles of the Qur'an. The study also sheds light on the Hadiths whose meanings intersect with religious texts found in the revealed scriptures (the Torah and the Gospel).

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol65.Iss1.4985

التّناصّ في الحديث النّبويّ الشّريف

الباحث: محمّد عليّ كامِل فِزع أ.د. جاسِم فريّح دايخ التّرابيّ أ.د. سعاد بديع مطير
جامعة واسط ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخّص:

يدور هذا البحث في هيكله العامّ حول دراسة التّناصّ كمعيار نصّيّ في الحديث النّبويّ الشّريف؛ للبرهنة على تأثّر اللّغة النّبويّة بلغة القرآن الكريم، ومدى تشرّب كلام النّبيّ الأعظم (ﷺ) بمعاني القرآن العظيم وأساليبه البلاغيّة. ويسلّط البحث الضّوء على الأحاديث الّتي تتقاطع في معانيها مع النّصوص الدّينيّة في الكتب السّماويّة (التّوراة والإنجيل).

الكلمات المفتاحيّة: التّناصّ ، الحديث النّبويّ ، اللّغة النّبويّة.

المقدّمة:

الحمدُ للهِ الّذي مَنّ على ذوي الألباب بسحر البيان، وشرَّفهم بفصاحة اللّسان، نحمده سبحانه على ترادف نعمائه، ونَشكُرُهُ على تَخالُف آلائه. والصّلاةُ والسّلامُ على محمّدٍ وآله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدّين.

أمّا بعد،

يُعَدُّ الحديث النّبويّ الشّريف من أبلغ وأفصح النّصوص الدّينيّة بعد القرآن الكريم. إذ تميّز بعدّة مزايا بيانيّة جعلته في المقام البيانيّ الأوّل في لغة العرب، فكلّ الخلق في بيانهم قاصرين عنه، وفصاحتهم واقعة دونه. فكلامه(ﷺ) دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين.

إذ يتجلّى البيان النّبويّ بعذوبة الألفاظ، وجمال التّراكيب، وجزالة المعنى. فقد جمع الرّسول الكريم(ﷺ) بين الإيجاز في التّعبير والجدّة والقوّة في المعنى، فكان (ﷺ) يأتي بالألفاظ القليلة ليدلّ بها على معانٍ كثيرة، مع تأثير عميق في نفوس المتلقين. وكلّ ذلك نتيجة لتأثّر اللّغة النّبويّة بلغة الوحي، فقد حملت في تضاعيفها أسلوب القرآن الكريم وجمال معناه وروعة إيقاعه اللّفظيّ. مشكّلة بذلك امتداداً للغة القرآن الكريم؛ ولكن دون أن تصل إلى مستواه الإعجازيّ.

إنَّ دراسة التّناصّ في الحديث النّبويّ الشّريف بوصفه معيارًا نصّيّاً؛ هو لفرز مكونات النّسيج النّصّيّ لحكمه ص؛ وللبرهنة على أنّ كلامه (ﷺ) مُستقى من لغة القرآن الكريم، عن طريق الكشف عن المعاني القرآنيّة والآيات الّتي وظّفها في تضاعيف كلامه (ﷺ)؛ ولتسليط الضّوء أكثر على عمق بلاغته ص؛ ولمعرفة عمق الأصالة والتّجديد في كلامه، إذ إنّ كلامه (ﷺ) يستقيه من مفاهيم القرآن الكريم ثمّ يعيد صياغتها بأسلوب جديد ومعانٍ وسياقات مبتكرة تتّسم بالجدّة والإبداع والإتقان. إنَّ دراسة التّناصّ في بحثنا هذا لا تقتصر على الاقتباسات من النّصوص الدّينيّة فحسب، وإنّما لتسليط الضّوء على جمال البنية المعنويّة الّتي يتقبسها الرّسول الكريم(ﷺ) ليعيد صياغتها في سياقات جديدة تراعي مقاصده وتلائم المقام الّذي تُقال فيه وتخدم الرؤية الإسلاميّة.

أمّا المنهجيّة المعتمدة في هذا البحث، فكانت باستقراء كتاب حكم النّبيّ الأعظم لمحمّد الرّيشهريّ، الّذي تضمّن حكمًا مختارة من أحاديث الرسول الكريم(ﷺ). جاء البحث على تمهيد يردفه مبحثان، فكان التّمهيد تحت عنوان (التّناصّ، مفهومه، وأشكاله وأنواعه) تناولت فيه مفهوم التّناصّ في الدّراسات اللّغويّة، وأشكاله، وأنواعه، حسب ماهو مشهور عند جمهور اللّغويّين . أمّا المبحث الأوّل، فكان تحت عنوان (التّناصّ غير المباشر) تناولت فيه تقاطع الأحاديث النّبويّة مع الكتب السّماويّة (التّوراة والإنجيل)، ثمّ تناصّ الأحاديث الشّريفة مع النّصّ القرآنيّ. وأمّا المبحث الّثاني، فكان

تحت عنوان (التّناصّ المباشر) ويكون في معظمه اقتباسًا مباشرًا من النّصّ القرآنيّ. وقد استقى البحث مادته العلميّة من المصادر اللّغويّة والدينيّة، ومن المراجع الحديثة.

إنَّ هذا البحث جاء خدمة لحديث الرّسول الكريم(ﷺ)، أسال الله أن أنال به شفاعته يوم الورود. وآخر دعوانا أنّ الحمد لله ربّ العالمين.

التّمهيد (التّناصّ، مفهومه، وأشكاله، وأنواعه)

إنَّ مصطلح (التّناصّ) ومفهومه العامّ المتعارف عليه في وقتنا الحاضر خرج من رحم الدّراسات الأدبيّة واللّغويّة الغربيّة الحديثة، بيد أننا نجد لهذا المفهوم جذور في التّراث العربيّ، فلم يكن العرب غافلين عنه، إذ سجّل حضورًا في عمق الدّراسات العربيّة النّقديّة والبلاغيّة. فقد تجسّد مفهوم التّناصّ في رؤية العرب النّقديّة للغة والأدب؛ وعبّر اللّغويّون العرب عنه بمصطلحات مختلفة منها السّرقات الأدبيّة، والتّلميح، والأقتباس، والمعارضات وغير ذلك من المصطلحات الّتي تدلّ على التّناصّ في مفهومه الحديث. فلم تكن نظرة اللّغويّين العرب مختلفة عن نظرة اللّغويّين المحدثين في الدّراسات اللّسانيّة، فكلا النّظرتين تشير إلى عدم الاعتماد التّامّ على النّصوص السّابقة، ومحاكاتها.

فقد أشار أبو هلال العسكريّ (٣٩٥هـ) إلى ذلك في مصنّفه (الصّناعتين الشّعر والنّثر) بقوله: "ليس لأحدٍ مِن أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممّن تقدّمهم، والصّبّ على قوالب مَن سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذُوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها، وكمال حليتها، ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها مِمّن سبق إليها؛ ولولا أنَّ القائل يؤدّي ما سمع لما كان في طاقته أنْ يقول، وإنّما ينطق الطّفل بعد استماعه مِنَ البالغين، وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لولا أنَّ الكلام يُعادُ لنفدَ" (أبو هلال العسكريّ،١٤١٩هـ، ١٩٦)، ثمّ أضاف أبو هلال العسكريّ إلى ذلك أنّهُ قد "أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم؛ فليس على أحد فيه عيب إلّا إذا أخذهُ بلفظهِ كلّه" (أبو هلال العسكريّ،١٤١٩هـ، ١٩٧)، وبهذه الإشارة مهّد أبو هلال العسكريّ إلى فكرة تداخل النّصوص والمعاني.

أمّا في أروقة الدّراسات اللّغويّة الغربيّة، فكانت هذه الفكرة أكثر وضوحًا وتنظيرًا. إذ نشأ مصطلح (التّناصّ) الّذي يعبّر عن تلك الفكرة. بعد أن أهتمّ الشّكلانيون الرّوس بهذا العنصر اللّغويّ النّصّيّ، وكانوا الأسبق في هذا المضمار. بيد أنّ اللّغويّ الرّوسيّ ميخائيل باختين كان له الفضل الكبير في التّنظير لهذا العنصر المهمّ، فقد أولاه جُلّ اهتمامه في مصنّفه (فلسفة اللّغة)، فقدّم رؤية واضحة له، وأطلق عليه (الحواريّة)، ونبّه إلى عدم دراسة النّصّ بمعزل عن النّصّوص الأخرى؛ لأنّ أيّ نصّ لا بُدَّ أن يتفاعل ويتعالق مع نصوص أخرى بقصد أو غير قصد(ينظر:عزّة شبل،٢٠٠٩م، ٧٤، وينظر: خالد حوير،٢٠٢٠م ، ١٨٥).

ورثت الباحثة اللّغويّة جوليا كريستيفا رؤية اللّغويّ (ميخائيل باختين) وأفادت منها، وطوّرتها، وتوّجت تلك الرؤية بابتكارها مصطلح (التّناصّ) (Interextualite)، الّذي يقوم على علاقة النّصوص المنتجة مع النّصوص السّابقة. حدّته جوليا بقولها: "هو تفاعل نصّيّ يحدث داخل نصّ واحد، ويمكّن مِنَ التقاط المقاطع والقوانين، لبنية نصّيّة بعينها، باعتبارها مقاطع وقوانين محوّلة من نصوص أُخرى"(مارك دوبيازي،١٩٩٦م،٣١٠) ووصفت التّناصّ بأنّه "ترحال للنّصوص وتداخل نصّيّ، ففي فضاء نصّيّ معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى".

(جوليا كريستيفا،١٩٩١م،٢١).

أقامت جوليا كريستيفا باستعمالات إجرائيّة على مفهوم التّناصّ، إذ بيّنت مفهومه العامّ، وسلّطت الضّوء من خلاله على تفاعل النّصوص مع بعضها، وتوسّعت في بيان وإيضاح قابليات التّناصّ الإجرائيّة، عندما تناولت نصّوص شعريّة وقفت من خلالها عند أهمّ عمليات التّحوير الّتي يلجأ النّاصّ إليها. وبهذا العمل المبتكر تُعدُّ كريستيفا صاحبة القدح المُعلى في التّنظير لهذا العنصر اللّغويّ النّصّيّ المهمّ، إذ بلورت مفاهيمه، وشقّت الطّريق أمام الدّراسات اللّغويّة والباحثين لتناول هذا العنصر النّصّيّ في النّصوص اللّغويّة (ينظر: شربل داغر، ١٩٩٧م، ١٢٧).

أمّا لسانيو النّصّ، فقد عدّوا هذه المعيار سمة من سمات النّصّيّة، وضرورة مهمّة لنجاح الاتّصال بين طرفي النّصّ (المُلقي والمتلقّي)، ومن ثمّ فهم النّصوص وتحليلها، ومعرفة علاقتها مع النّصوص الاخرى. ومفهوم التّناصّ عند الباحثَين بوجراند ودريسلر "لا يقع في النّصّ نفسه، وإنّما في عمليات التّواصل الاجتماعيّ"(حسام فرج،٢٠٠٧م، ١٩٦) فالتّناصّ في رؤيتهما هو "التّرابط بين إنتاج نصّ بعينه أو قبوله، وبين المعارف الّتي يملكها مشاركو التّواصل عن نصوص أخرى"(شربل داغر،١٩٩٧م، ١٢٨).

فضلاً عن ذلك، فقد عدّه بوجراند أحد المعايير السّبعة الّتي يقوم عليها النّصّ، وحدّه بقوله: "وهو يتضمّن العلاقات بين نصّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به، وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أم بغير وساطة".
(دي بوجراند،١٩٩٨م،١٠٤).

فالتّناصّ كمعيار نصّيّ لا يبحث في التّراكمات النّصّيّة (الإقتباسات) داخل النّصّ فحسب، سواء المباشرة أو غير المباشرة؛ بل يوجّه بوصلة البحث نحو دراسة التّفاعل والتّعالق بين النّصوص الغائبة والحاضرة، ودراسة التّناصّ كعنصر تواصليّ، ممّا يجعل الوقوف على علاقة التّناص داخل دائرة اللّغة والثّقافة أمرًا مهمّاً؛ كون التّناصّ "وسيلة تواصل لا يمكن أن يحصل القصد من أيّ خطاب لغويّ بدونه، اذ يكون هناك مرسل بغير متلقٍ متقبّل مستوعب مدرك لمراميّه، وعلى هذا فإنَّ وجود ميثاق، وقسطاً مشتركاً بينهما من التّقاليد الأدبيّة، ومن المعاني ضروري لنجاح العمليّة التّواصليّة"(محمّد مفتاح،١٩٩٢م، ١٣٤-١٣٥).

ونفهم ممّا سُطِّر أنَّ التّناصّ عمليّة توليد للنّصوص، يقوم بها النّاصّ بالاعتماد على الخزين المعرفيّ له، والمرجعية الفكريّة لديه، محدثًا نقلاً للمعلومات والخبرات من النّصوص السّابقة إلى النّصّ الجديد. إذ يمكّننا هذا المعيار المهمّ من فهم النّصوص وتحليلها، ويمكّننا أيضًا من الوقوف على علاقة النّصّ بالنّصوص الأخرى، عن طريق شدّ انتباه المتلقّي إلى نصوص غائبة بالإشارة إليها.

إنَّ الألفاظ الّتي يستعملها النّاصّ في نصوص معينة هي ذاتها المستعملة في نصوص لناصّ آخر؛ لأنَّ اللّغة هي ذاتها، وهي العنصر المشترك بين أفراد البيئة اللّغويّة. ولكي يصل التّناصّ إلى أبهى صوره، يجب أن يتمّ استعماله بأسلوب مبدع، حتّى يصبح النّصّ أكثر جمالاً وتأثيرًا، ويرسم صورة فنّيّة مميزة، ويخرج بالنّصّ من دائرة النّقل والاقتباس إلى الإبداع عن طريق ربط النّصّ الحاضر بالتّراث الأدبيّ والثّقافيّ للغة (ينظر: عزة شبل،٢٠٠٩م، ٧٥، ينظر: تحريشيّ،٢٠٠٠، ٦٢).

أشكال التّناصّ وأنواعه:

يحدث التّناصّ في النّصوص الأدبيّة بأشكال وكيفيات مختلفة، حدّدها الدكتور محمّد عبد المطلب في نمطين أساسيين (ينظر: محمد عبد المطلب، ١٩٩٥م، ١٥٣) :

النّمط الأوّل: يحدث بعفويّة دون قصد. إذ يكون هناك تسلّل لفكرة أو معنى من نصّ سابق إلى نصّ حديث دون أن يشعر النّاصّ بذلك. فهو عندما يكتب نصّ ما، بلا شكّ أنّه قد تأثر بأفكار وعبارات سبق أن اطّلع عليها، وترسّخت في ذهنه، فتظهر في النّصّ الجديد دون قصد.

النّمط الثّاني: يحدث بوعي النّاصّ وقصده. إذ يعمد النّاصّ إلى استحضار فكرة، أو عبارة، أو اقتباس، بقصد ووعي تامّ يكاد يصل إلى درجة التّنصيص. فيضمّنها في النّصّ الجديد، بقصد الإحالة إلى النّصّ السّابق، أو التّفاعل معه، معززًا بذلك معنى النّصّ الجديد.

أمَّا أنواعه، فيقسّم لسانيو النّصّ التّناصّ على قسمين (ينظر: محمّد مفتاح،١٩٩٢م، ١٢٤) :

الأوّل: التّناصّ المباشر (الخارجيّ):

وهو أن يتضمّن النّصّ الجديد اقتباسًا من نصّ سابق أو نصوص سابقة، وهو النّوع البسيط من أنواع التّناصّ؛ لأنّه ينقل هذه الاقتباسات مثلما هي دون تغيير، على أن يكون الاقتباس ملائمًا لسياق الموقف الاتّصاليّ الحديث من جهة، ومناسبًا لموضوع النّصّ من جهة أخرى. بعد أن يقدّم توطئة تخدم هذا الاقتباس في النّصّ الجديد (ينظر:عزّة شبل،٢٠٠٩، ٧٩).

الثّاني: التّناصّ غير المباشر (الدّاخليّ):

وهو أن "يستنبط من النّصّ استنباطًا، ويرجع إلى تناصّ الأفكار أو المقروء الثّقافيّ، أو الذّاكرة التّاريخيّة الّتي تستحضر تناصّها بروحها أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها، وتفهم من تلميحات النّصّ وإيماءاته وشفراته وترميزاته"(عزّة شبل، ٢٠٠٩، ٨٠).

وعند تطبيق هذا المعيار النّصّيّ في حكم النّبيّ الأعظم(ﷺ) نجد كثير من الأحاديث تتناص مع القرآن الكريم. إذ يستمد الرّسول الكريم(ﷺ) أسلوب حديثه من القرآن الكريم، متأثرًا ببيان الوحي. فاللّغة النّبويّة هي امتداد للغة القرآن الكريم، يستقي الرّسول (ﷺ) منها العناصر الجماليّة والدّلاليّة ثمّ يعيد توظيفها في كلامه ص.

إنَّ التّعاليم الإسلاميّة والمفاهيم القرآنيّة بعد أن يتلقّاها الرّسول (ﷺ) من الوحي يعيد ترجمتها وصياغتها بلغة بشريّة، مضيفًا عليها جدّة في الأسلوب والمعلومات، جاعلاً إيّاها قريبة من حياة النّاس. على أنَّ تلك الجدّة نابعة من المعنى القرآنيّ. ممّا أضفى على كلامه (ﷺ) جمالاً بيانيّاً ورونقًا خاصًّا وروعة في الأسلوب؛ ليخرج لنا الحديث بأبهى صورة لغويّة وليمثّل لنا معجزة بيانيّة.

المبحث الأوّل: (التّناصّ غير المباشر):

أوّلًا: تناصّ مع الكتب السّماويّة (التّوراة والإنجيل):

يُعَدُّ الحديث النّبويّ الشّريف من أهمّ النّصوص الدّينيّة بعد القرآن الكريم في العالم الإسلاميّ، وهو النّصّ الأبلغ والأفصح بعد كلام الله عزّ وجلّ، فكلامه (ﷺ) دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين؛ لذا يتّسم بثراء لغويّ يفوق كلّ

ماهو موجود في كلام البشر، ويتّسم أيضًا بسمة روحيّة قادرة على التّأثير في المتلقّي (ينظر: البيوميّ، ٢٠٠٨م، ٢٣٧)، ممّا جعل الحديث الشّريف منفتحًا على كلّ السّياقات النّصّيّة السّابقة له لا سيّما التّوراة والإنجيل.

فقد مثّل هذا الانفتاح ترابطًا بين الرّسالات السّماويّة (اليهوديّة، المسيحيّة، الإسلاميّة) الّتي مصدرها واحد وهو الله سبحانه وتعالى. أنَّ القرآن الكريم وهو أخر الكتب السّماويّة نزل على النّبيّ محمّد (ﷺ) جاء مصدّقاً لما بين يديه من الكتب؛ عبّر النّبيّ محمّد (ﷺ) في حديثه عن القيم الإلهيّة ذاتها الّتي دعت إليها الكتب والدّيانات السّماويّة السّمحاء. ليعيد ترجمة تلك القيم السّماويّة مضمّنًا إيّاها المفاهيم القرآنيّة والتّعالم الإسلاميّة.

إنَّ هذه الدّراسة لا تعني إبعاد الكتب السّماويّة من دائرة التّحريف؛ لأنّ التّحريف في الكتب السّماويّة السّابقة للإسلام بيّنه القرآن الكريم بصورة واضحة، إذ قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾ (النّساء: ٤٦)؛ وإنَّما جاءت للكشف عن تشابه المعاني والدّلالات بين النّصوص الّتي هي مدار البحث؛ ولإثبات أنّ رسالته(ﷺ) شاملة ومتمّمة للمفاهيم الّتي تضمّنتها الرّسالات السّماويّة، وأنّها كلّها من وحي واحد.

فالتّناصّ مع الكتب السّماويّة الّذي نحن بصدده ليس تناصّاً بالمفهوم الأدبيّ المحض للتناصّ. إذ إنّ ما ورد من تناصّ في بعض الأحاديث النّبويّة وبين الكتب السّماويّة هو من باب الإشتراك في المصدر الإلهيّ. فالكتب السّماويّة جميعها مصدرها واحد وهو الله عزّ وجلّ، فمع تحريفها، لا غرابة أن يكون هناك تناصّ.

فمن الأحاديث الشّريفة الّتي أحتوت على تناصّ غير مباشر مع العهد القديم (التّوراة)، قوله ص: "مَن سَرَّهُ أن يُمَدَّ لَهُ في عُمُرِه ويُزادَ في رِزقِهِ فلْيَبَرَّ والِدَيهِ، ولْيَصِلْ رَحِمَهُ"(حكم النّبيّ: ٦/٥٢٧)، إذ يتناصّ بالمعنى مع النّصّ التّوراتيّ : "أكرِمْ أبَاكَ وأُمَّكَ لِيَطولَ عُمرُكَ في الأرضِ"(سفر الخروج١٢/٢٠).

يمثّل هذا المثال تناصًّا بين الحديث النّبويّ والنّصّ التّوراتيّ، إذ يستحضر الحديث الشّريف المعنى المركزيّ ذاته الموجود في نصّ التّوراة. فكلا النّصّين يدور معناهما حول برّ الوالدين، وجعلها سببًا لإطالة العمر، ونماء البركة واستمرارها في حياة الإنسان. وبرّ الوالدين لا يكون إلّا في تحقيق الحبّ، والشّكر، والاحترام، والطّاعة لهما(ينظر:القبانجيّ،١٤٠٦هـ، ٥٧٥).

فالحديث النّبويّ يتفاعل مع النّصّ التّوراتيّ الّذي يحمل في تضاعيفه بعدًا أخلاقيًّا واجتماعيًّا، ليعيد صياغته بصورة بلاغيّة تتّسم بالدّقّة، والتّوسّع في الدّلالة، جاعلاً المعنى يتناسب مع القيم والمبادئ الإسلاميّة القائمة على الرّحمة والتّعاون الاجتماعيّ.

فالحديث الشّريف يوسّع المعنى المركزيّ للنّصّ التّوراتيّ، فلم يقتصر على برّ الوالدين فحسب، وإنَّما قرن برّ الوالدين مع صلة الرّحم، وجعل نتيجة هذا الفعل إطالة في العمر ونماءً في الرّزق. ممّا أضفى تحفيزًا عالٍ بين علاقة هذا الفعل ونتيجته. وهذا التّوسّع في المعنى جعل الدّائرة الاجتماعيّة الّتي يشملها الحديث أوسع وأشمل من النّصّ التّوراتيّ. فضلاً عن ذلك فإنّ بلاغة الحديث وما احتوته من شرط حفّزت المتلقّي للتفاعل مع الحديث.

ومن الأمثلة الّتي يتقاطع فيها معنى الحديث الشّريف مع النّصّ التّوراتيّ، قوله (ﷺ): "مَن شَهِدَ شهادَةَ زُورٍ على رجُلٍ مُسلمٍ أو ذِمّيّ أو مَن كانَ مِنَ الناسِ، عُلّقَ بِلِسانِهِ يومَ القمامةِ، وهُو مَع المنافِقِينَ في الدَّرَكِ الأسفَلِ مِنَ النارِ"(حكم النّبيّ: ٦/٥٧٠)، فالحديث الشّريف يتقاطع مع النّصّ التّوراتيّ: "لا تشهَدْ على غيرِكَ شهادَةَ زورٍ"(سفر الخروج ٢٠/١٦).

إنَّ الحديث النّبويّ الشّريف يستدعي المعنى التّوراتيّ؛ ليعيد توظيفه في سياق دينيّ أكثر عمقًا، ودلالة أكثر اتّساعًا. واستدعاء المعنى هذا يبيّن لنا تفاعل الحديث النّبويّ وتحاوره مع النّصّ التّوراتيّ، ومدى انفتاحه على النّصوص الأخرى. فهو لا يقتبس مباشرةً من التّوراة، ولا يكرّر الخطاب السّابق له، وإنَّما يستحضر الفكرة ذاتها وفق رؤية إسلاميّة جديدة.

فالنّصّ التّوراتيّ يدعو إلى تهذيب السّلوك الأخلاقيّ عبر النّهي المباشر عن شهادة الزّور. بينما الحديث النّبويّ يقرن هذا النّهي بتحذير مرتبط بجزاء إلهيّ في الآخرة. فجزاء شاهد الزّور أن يُعلّق بلسانه يوم القيامة. فهذه البنية التّصويريّة الّتي بيّنت العقوبة الإلهيّة في الآخرة أضافت بعدًا إيمانيًّا في الحديث النّبويّ. ورسمت صورة تحذيريّة من هذا العمل المنحرف.

إنَّ النّصّ التّوراتيّ ينظر لهذا السّلوك المنحرف من منظار دنيويّ أخلاقيّ فقط، فيحذّر منه على أنّه أثم اجتماعيّ. أمَّا الحديث النّبويّ، فينقل هذه النّظرة الدّنيويّة إلى نظرة أخرويّة مرتبطة بجزاء هذا السّلوك المتمثّل بعذاب الآخرة. كما أنّ الحديث يشمل في خطابه سائر البشر، المسلم وغير المسلم؛ لأنَّ شهادة الزّور "أكل لحقوق النّاس، ونصر للباطل على الحقّ، لذلك كان من الطّبيعيّ أن يحاربها الإسلام محاربة شديدة، وهدفه في ذلك حفظ المجتمع"(محسن عقيل، ٢٠٠٦، ٢١٦) وهو بهذه المحاربة يعكس صور الرّسالة النّبويّة ويسلّط الضّوء على ما تتضمّنه من أبعاد اجتماعيّة وإنسانيّة.

ومن شواهد التّناصّ الّذي يحمل قصديّة واحدة ومعنى مشترك بين الحديث النّبويّ والنّصّ التّوراتيّ، قوله ص : "ارحَمُوا مَن في الأرضِ يَرحَمْكُم مَن في السماءِ"(حكم النّبيّ: ٤/٤٠٠)، إذ يتقاطع معنى الحديث الشّريف مع معنى النّصّ التّوراتيّ: "ولا تَظلِمِ الغريبَ ولا تُضَايقْهُ، فأنتُم كُنتم غُرَباءَ في أرضِ مِصْرَ"(سفر الخروج ٢٢/٢٠).

فالحديث الشّريف يشترك مع النّصّ التّوراتيّ في القيمة الأخلاقيّة نفسها؛ ليدلّان على الفكرة والمعنى ذاته، فكلا النّصّين يدعوان إلى التّراحم، وعدم ظلم الآخرين، والإحسان للغرباء والضّعفاء؛ لكن الحديث الشّريف يعيد هذا المعنى بأسلوب جديد وصياغة بليغة مع التّوسّع في في المعنى.

فالنّصّ التّوراتيّ يدعو إلى التّعامل مع الغرباء بلطف وإنسانيّة، ويدعو أيضاً إلى عدم ظلم ومضايقة الغريب. بينما الحديث النّبويّ يستحضر المعنى بعد أن يعيد صياغته وفقًا للرؤية الإسلاميّة. ويوسّع نطاق الرّحمة لتشمل كلّ المخلوقات. كما أنّ الحديث لا يقتصر على منع الظّلم فحسب؛ وإنَّما يبني سلوكًا إنسانيًّا تراحميًّا يتمثّل بصيغة الأمر (ارحموا)؛ ليسير عليه الإنسان عند تعامله مع الآخرين، فالرّحمة "هي أثر من الجمال الإلهيّ الباقي في طبائع النّاس يحدوهم إلى البرِّ، ويهبّ عليهم في الأزمات الخانقة ريحًا بليلةً تُرطّب الحياة وتنعش الصّدور"(محمّد الغزاليّ، ١٤١٦هـ، ٢٢٠).

إنّ سياق النّصّ التّوراتيّ مرتبط بسياق اجتماعيّ خاصّ، إذ كان الخطاب موجّهاً إلى بني إسرائيل فقط، مذكّرًا أيّاهم بمعاناتهم السّابقة الّتي مرّوا بها. أمَّا الحديث الشّريف، فكان خطابه شاملًا، إذ شمل بالرّحمة المخلوقات على وجه الأرض كلّها، ولم يقتصر على كائن دون أخر. وبهذا الشّمول نقل الحديث المعنى من الإطار القوميّ (بني إسرائيل)، إلى إلى الإطار الإنسانيّ (من في الأرض عامتهم).

ومن الأحاديث الّتي احتوت على تناصّ بالمعنى مع النَّصّ القرآنيّ مع الاختلاف في الرّوية الدّينيّة، قوله(ﷺ): "مَن كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَفِ إذا وَعَدَ"(حكم النّبيّ ٤/٥١٠) إذ تناصّ الحديث تناصًا غير مباشر مع النَّصّ التّوراتيّ: "فأنتبهوا لِنلاَّ تَنسَوا عَهدَ الرّبِّ إلهكُم الذي قطعَهُ معَكُم"(سفر التّثنية ٤/٢٣).

يلتقي النّصّان في القيمة الأخلاقيّة ذاتها، فكلاهما يؤكّدان على الوفاء والصّدق بالعهد، وعدم نقضه. بيد أنّ لكلّ منهما سياق مختلف، فيتّفق النّصّان في القيمة الأخلاقيّة، ويختلفان في الرّوية الدّينيّة.

فالنّصّ التّوراتيّ يوجّه تحذيرًا لمجموعة محدّدة من النّاس (بني إسرائيل)؛ محذرًا إيّاهم من نكث أو نسيان العهد الّذي قطعوه على أنفسهم مع الله تبارك وتعالى. أمّا الحديث النّبويّ، فيقصر الوفاء بالعهد على مستوى فرديّ موجّه إلى المسلمين جميعهم. ثمّ يوسّع المعنى، فلا يقتصر على التحذير من خيانة العهد فحسب، وإنّما جعل الوفاء بالعهد علامة على تقوى الفرد ودليلًا للإيمان بالله واليوم الآخر. فنكث "الوعد حرام، والوفاء به واجب فينبغي للمؤمن أن لا يعد وإذا وعد أن يفي به"(المازندرانيّ، ٢٠٠٠م، ١٠/٢٤).

ومن الشّواهد الّتي أحتوت على تناصّ غير المباشر يدلّ على معنى واحد مشترك بين الحديث النّبويّ والعهد القديم، قوله (ﷺ): "إيّاكُم والرّشوَةَ فإنّها مَحضُ الكُفرِ، ولا يَشُمُّ صاحِبُ الرّشوةِ رِيحَ الجَنَّةِ"(حكم النّبيّ ٥/٩)، فالحديث يتقاطع مع معنى النّصّ التّوراتيّ: "لا تأخُذوا رَشوَةً لأنَّ الرَّشوَةَ تُعمي أبصارَ الحُكَماءِ وتُحَرِّفُ أقوالَ الصَّادِقينَ"(سفر التّثنية ١٦/١٩).

إذ يلتقي الحديث النّبويّ والنّصّ التّوراتيّ في المعنى ذاته. فكلا النّصّين يتضمّن مفهوم أخلاقيّ واجتماعيّ ودينيّ، يتعلّق بتحريم أخذ الرّشوة؛ لأنّ الرّشوة "إذا شاعت في المجتمع تفشّى فيه الظّلم، وأكل الحقوق، وغلبة الباطل على الحقّ...والتهرّب من الواجب يصبح هو القاعدة...ويعيش النّاس حالة من الغيظ والغضب الّذي يغلي في الصّدور، وتشيع نظرة الحقد والكراهيّة ضدّ كلّ إنسان يشغل منصبًا ما ، ولا يرضى العمل إلّا بالرّشوة"(محسن عقيل،٢٠٠٦، ٥٧٤).

فالنّصّ التّوراتيّ تضمّن خطابًا موجّهًا إلى القضاة، يحذّرهم فيه من الرّشوة. مستعملاً صيغة النّهي في ذلك التّحذير. ثمّ يوضّح لنا النّصّ التّوراتيّ أثر الرّشوة، وهي عُمي الأبصار وانحراف أقوال الصّادقين. أمّا الحديث الشّريف، فيوسّع الدّلالة السّابقة، ويربطها برؤية إسلاميّة جديدة؛ ترتفع بمفهومها لتصل إلى منزلة الإيمان والعقيدة. جاعلًا الرّشوة (كفر صريح)، يُحرم مرتكبها من ريح الجنّة.

إنَّ الحديث جاء بصيغة تحذيريّة مباشرة (إيّاكم والرّشوة)، ممّا أضفى قوّة بلاغيّة للنّصّ، وتأثيرًا عاليًا في ذهن المتلقّي، ثمّ يوضّح جزاء هذا العمل بعقاب أخرويّ يتمثّل بحرمان آخذ الرّشوة من ريح الجنّة. والرّبط بين هذا السّلوك والعقاب الأخرويّ أضفى بعدًا تصويريًّا له أثر كبير في المتلقّي.

بيّن الحديث الشّريف أنَّ الرّشوة ليست تهديدًا للمجتمع فحسب، وإنّما هي تهديد للإيمان الدّاخلي للفرد، عند طريق نقله جريمة الرّشوة من جريمة اجتماعيّة إلى معصية دينيّة تهدد إيمان الشّخص وتحطّم جوهره الأخلاقيّ، ومقاومة هذا التّهديد واجب دينيّ حثّ عليه الحديث الشّريف.

أمّا تناصّ الحديث الشّريف مع الإنجيل، فنجد شواهد عدّة يتقاطع الحديث النّبويّ مع معناها. ومن جملة تلك الأحاديث الشّريفة الّتي أحتوت على تناصّ غير مباشر مع الإنجيل، قوله (ﷺ) : "لا يُؤْمِنُ أحَدُكُم حَتّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِهِ"(حكم النّبيّ: ١/٤٠٠)، إذ تناصّ الحديث الشّريف مع النّصّ الإنجيليّ: "أَحِبَّ قريبَكَ مِثلَما تُحبُّ نفسَكَ"(متّى ٢٢/٣٩)، تناصّاً في المعنى ذاته.

فالنّصّان كلاهما يشتركان في المعنى والموضوع ذاته، وهو حبّ الخير للآخرين كما نحبّ الخير لأنفسنا. فقد وظّف الرّسول (ﷺ) المعنى ذاته، إذ أعاد الرّسول (ﷺ) بناء الفكرة الأخلاقيّة في سياق مختلف، وصياغة جديدة تتضمّن أبعادًا اجتماعيّة ودينيّة.

فالنّصّ الإنجيليّ أشار إلى الأخلاق كواجب إنسانيّ بصورة عامّة. أمّا الحديث النّبويّ، فقد وسّع دلالة الإخلاق إلى بعد دينيّ وروحيّ، عن طريق ربط الأخلاق بالعمق الإيمانيّ، إذ إنَّ الإيمان لا يكتمل إلّا بحبّ الخير للآخرين؛ "لأنَّ الحبّ معناه الأخوة، والإنسانيّة، والتّكافل والتّضامن، والقوّة، والنّجاح، وبالحبّ ستقيم الحياة، ولا معنى لحياة بلا حبّ، وأيضًا لا معنى للكراهيّة إلّا الحرب، والشّقاق، والفشل، والتّخلف"(محمّد جواد مغنية،٢٠٠٥، ٥/٢١٤).

فالتّناصّ بين النّصّين يؤكّد وحدة الرّسالات السّماويّة وتأكيدها على القيم والمفاهيم الأخلاقيّة والإنسانيّة. فجاء النّصّ النّبويّ مؤكّدًا للمعنى السّابق ورابطًا إيّاه بالعمل الدّينيّ والإيمانيّ.

ومن أمثلة التّناصّ بالمعنى الّذي يدلّ على فكرة جوهريّة واحدة، قوله (ﷺ) : "سَيّدُ القَومِ خادِمُهُم، وساقِيهم آخِرُهُم شُرباً"(حكم النّبيّ: ٥/١٦٩)، إذ يتفاعل الحديث الشّريف مع النّصّ الإنجيلي: "مَنْ أرادَ أنْ يكونَ عَظيمًا فيكُم، فلْيكُنْ لكُم خادِمًا"(متّى ٢٠/٢٦) تفاعلاً على مستوى المعنى، لا على مستوى الألفاظ.

يرتبط النّصّان بمعنى عامّ واحد يدلّ على أنّ العظمة والسّيادة تكون في التّواضع وخدمة الآخرين، لا بالقوّة أو التّسلّط؛ لأنّ القيادة في التّصوّر الألهيّ لا تقوم على القوّة وإنّما بالتّضحية والسّخاء.

فالحديث الشّريف يتضمّن المعنى ذاته الموجود في النّصّ الإنجيليّ؛ ولكن بأسلوب بلاغيّ عالٍ يتّسم بالإيجاز والجدّة. فالخدمة هي المعيار المحض للسيادة، فلا يكون الشخص سيدًا على قومه إلّا إذا كان أكثرهم تواضعًا وخدمة لأبناء قومه. إذ "هو الّذي يُفزع إليه في النّوائب فيتحمّل الأثقال عنهم فلمّا تحمّل خادمهم عنهم الأمور وكفاهم مؤونتهم وقام بأعباء ما لا يطيقونه كان سيدهم بهذا الاعتبار"(المناويّ، ١٩٩٤م، ٤/١٦١).

فالنّصّين كلاهما يتطابقان دلاليّاً في مفهوم القيادة، فلا تتحقّق إلّا بالخدمة والتّواضع. بيد أنّ الحديث الشّريف يوسّع رؤية النّصّ الإنجيليّ للقيادة ويطوّرها، من مستوى الفرد (من أراد أن يكون عظيمًا) إلى مستوى الجماعة (سيد القوم). عن طريق جعل التّواضع والسّخاء والإيثار بتقديم الخدمة مظهرًا من مظاهر القيادة في الجماعة.

ومن التّناصّ غير المباشر الّذي يشترك فيه النّصّان المتناصّان بالقصد والمعنى ذاته، قوله: "الرّاحِمونَ يَرحَمُهُم الرّحمٰنُ تباركَ وتعالى، ارحَمُوا مَن في الأرضِ يَرحَمْكُم مَن في السّماءِ"(حكم النّبيّ: ٤/٤٠٠)، إذ يتناص مع النّصّ الإنجيليّ التّالي: "كونوا رُحماء كما أنَّ اللهَ ... رحيمٌ"(لوقا٦/٣٦).

فالتّناصّ بين النّصّين يعدّ من أروع صور التّناصّ. فالحديث النّبويّ والنّصّ الإنجيليّ كلاهما يجمعهما مبدأ الرّحمة الإلهيّة، وكلاهما يتضّمن الدّعوة الإلهيّة في تأكيد قيمة الرّحمة والتّراحم كقيمة إنسانيّة جوهريّة تتحكم بعلاقات البشر فيما بينهم.

فالسّيد المسيح يحثّ أصحابه وأتباعه إلى التّجمّل بصفة الرّحمة عند التّعامل مع الآخرين؛ لأنّها من الصّفات الدّالة على الكمال الإنسانيّ. أمّا الحديث النّبويّ، فيتفاعل مع النّصّ الإنجيليّ عن طريق أعادة المعنى ذاته ولكن بصورة أخرى موسّعًا فيها مفهوم الرّحمة، فلا تقتصر الرّحمة بتجسيدها في العلاقات البشريّة (الرّحمة الأرضيّة) فحسب، وإنّما هنالك جزاء إلهيّ (الرّحمة السّماويّة)، الّتي تتمثّل برحمته سبحانه وتعالى للرحماء من عباده؛ لأنّ "الرّحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه"(محمّد الغزاليّ،١٤١٦هـ، ٢١٦).

فالتّراحم في الأرض بعده جزاء من الله عزّ وجلّ. إذ إنّ الرّحمة أمر متبادل بين العباد والخالق، وبين العباد أنفسهم. فالحديث جعل من الرّحمة قاعدة سلوكيّة عمليّة ننطلق منها في تعاملنا مع الآخرين.

ومن جملة الشّواهد في حكمه ص الّتي وردت بصيغة موجزة تحمل تناصًّا بالمعنى (غير مباشر)، قوله (ﷺ): "إنّ الله لا يَقبَلُ عَملاً فيهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن رياءٍ"(حكم النّبيّ: ٤/٦٥٦)، إذ تناصّ الحديث مع النّصّ الإنجيليّ: "إيَّاكُمْ أنْ تعمَلوا الخَيرَ أمامَ النَّاسِ ليُشاهِدوكُم، وإلاَّ فلا أجرَ لكُم عِندَ أبيكُمُ الّذي في السَّماواتِ"(متّى ٦/١).

إذ يدور النّصّان حول معنى واحد وهو والتّحذير من الرّياء، وإخلاص النّيّة في العمل الصّالح من غير رياء. فالنّصّ الإنجيليّ يقدّم رؤية تربويّة أخلاقيّة يحذّر فيها من ظاهرة الرّياء، ويهدف من خلالها إلى تهذيب السّلوك الإنسانيّ. أمّا

الحديث النّبويّ، فيعالج هذه الظّاهرة من منظور دينيّ جاعلًا الإخلاص في النّيّة شرطًا لقبول الأعمال الصّالحة (ينظر: الكلينيّ، د.ت، ٨/٢٣٤).

فالحديث الشّريف يتناصّ مع معنى النّصّ الإنجيليّ دون أن يقتبس ألفاظه، عن طريق إعادة المعنى الجوهريّ بصيغة مختلفة أكثر دقّة وإيجاز؛ ولكن وفقًا للعقيدة الإسلاميّة، فيعمّق الحديث الفكرة ويكثّفها بالمعاني الدّينيّة الإسلاميّة الّتي تجعل من النّيّة المحضة لوجه الله تعالى شرطًا جوهريًّا لقبول الأعمال الصّالحة مهما كانت صغيرة أو كبيرة؛ لأنّ "العبادة والعمل بدون الإخلاص في النّيّة معطّل ومهمل، كجسد لا روح فيه وبذر لا ثمر منه"(الشّيرازيّ، ١٣٦١هـ، ٤/٦٢).

فالنّصّ الإنجيليّ يحذّر من القيام بالأعمال الخيريّة أمام النّاس طلبًا للمدح؛ لأنّ هذا السّلوك غير مقبول من الله تعالى. بينما الحديث النّبويّ لا يقتصر على التّحذير من هذا السّلوك السّيء فحسب، بل يربط التّحذير السّلوكيّ بصفاء النّيّة عند القيام بالأعمال الصّالحة، إذ حوّل الحديث المبدأ من تحذير سلوكيّ نوّه عليه النّصّ الإنجيليّ إلى رؤية إيمانيّة تتعلّق بقبول الأعمال الصّالحة.

بعد عرض هذه النّصوص المتناصّة بين الحديث النّبويّ والكتب السّماويّة، وضمّ بعضها إلى بعض، يتبيّن لنا أنّ التّناصّ في معظمه يضمّ معانٍ أخلاقيّة واجتماعيّة، نادت بها جميع الأديان السّماويّة؛ مؤكدةً وحدة القيم الإلهيّة اتّجاه الإنسانيّة.

وأنَّ تفاعل الأحاديث مع نصوص العهد القديم والأنجيل يخرج من دائرة الاقتباس النّصّيّ إلى دائرة تقاطع المعاني؛ ليقدّم نصوصًا تتّسم بالإبداع، والتّجديد، والتّوسّع في المعاني وفق القيم الإسلاميّة ورؤاها الجديدة. لتبرّز لنا العبقريّة اللّغويّة للحديث النّبويّ.

ثانيًا: تناصّ مع النّصّ القرآنيّ:

إنَّ اللّغة النّبويّة انمازت بعدّة مزايا لغويّة جوهريّة جعلتها في أعلى مراتب البيان والفصاحة بعد القرآن الكريم. فالحديث النّبويّ يعدّ أمتدادًا للغة القرآن الكريم تلك اللّغة الإعجازيّة المنزّلة من الله عزّ وجلّ.

تشكّلت لغة الرّسول (ﷺ) في ظلّ التّأثّر بلغة الوحي، ممّا أضفى عليها قدسيّة، وجعلها تستمد معانيها وألفاظها من القرآن الكريم، فضلًا عن المجازات والكنايات، والتّشبيهات، وغيرها من الأساليب البلاغيّة الّتي استقاها من القرآن الكريم؛ ليعيد توظيفها في سياقات مختلفة تتناسب مع المقام الّذي تُقال فيه، محافظة بذلك على فصاحة وجزالة الألفاظ القرآنيّة.

فبهذا التّأثّر القرآنيّ هذّب الرّسول (ﷺ) المفردات والمعاني تهذيبًا قريباً من لغة القرآن الكريم، فقد أضاف الحديث ثروة لغويّة أفادت منها العربيّة، عن طريق توظيف المجازات والاستعارات القرآنيّة، والتّوسّع في المعاني والدّلالات، واستعماله بعض التّراكيب الّتي لم يسبقه إليها أحد(ينظر: الرّافعيّ، ١٩٧٣م، ٣١٥-٣١٦).

إنَّ دراسة التّناصّ بين الحديث الشّريف والقرآن الكريم؛ هو لبيان مدى تأثّر الأسلوب النّبويّ وتشرّبه باللّغة القرآنيّة؛ والوقوف على المعاني والألفاظ الّتي استقاها الرّسول (ﷺ) من القرآن الكريم وأعاد صياغتها بلغة بشريّة قريبة من ذهن المتلقّي. فنصوص الحديث النّبويّ هي انعكاس لنصوص القرآن الكريم، إذ "إنَّ كلّ نصّ هو عبارة عن لوحة فسيفسائيّة من الاقتباسات. وكلّ نصّ هو تشرّب وتحويل لنصوص أخرى"(الغذاميّ، ١٩٩٨م، ١٥).

حظي التّناصّ مع النّصّ القرآني في حكمه ص بالنّصيب الأكبر والمكانة العالية بين صور التّناصّ الأخرى. فمن شواهد التّناصّ بين الحديث الشّريف والقرآن الكريم، قوله ص: "حاسبوا أنفُسَكُم قَبلَ أن تُحاسَبوا، وزِنوها قَبلَ أنْ تُوزَّنوا، وتَجَهَّزوا للعَرْضِ الأكْبَرِ"(حكم النّبيّ: ٤/٣٨٥) إذ يتناصّ الحديث الشّريف مع قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: ١٨).

إنَّ التّناصّ بين الحديث الشّريف والنّصّ القرآنيّ تناصّ بالمعنى (تناصّ غير مباشر). إذ إنّ الحديث الشّريف يستمد المعنى من القرآن الكريم؛ ليعيد صياغته، وإنتاجه بأسلوب تحفيزيّ يتضمّن إرشاد موعظة بصورة تربويّة.

الّدلالة الّتي يحتويها النّصّ القرآنيّ المتمثّلة بالنّداء القرآنيّ التّحذيريّ (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ) يمتصّها النّصّ النّبويّ؛ ليعيد إنتاجها بأسلوب الموعظة النّبويّة؛ راسمًا من خلالها مفهومًا إيمانيًّا تطبيقيًّا مستمرًا لمحاسبة النّفس، عن طريق تحويل هذا النّداء إلى توجيه إرشاديّ تربويّ.

فقوله (ﷺ) (حاسبوا أنفسكم) هي تطبيق عمليّ يرسمه الحديث لقوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. و(وزِنوها قَبلَ أنْ تُوزَّنوا) تشير إلى يوم الحساب العظيم. فكلا التّركيبين المتقابلين يتشابهان في الصّياغة، ويشتركان في قصديّة واحدة، ومعنى واحد.

فالآية الكريمة تحثُّ على محاسبة النّفس، والتّفكّر في الأمور الّتي يقوم بها الإنسان، أيّ أنّ النّفس يجب أن "تنظر وتفكّر ما الّذي تقدّمه من الأفعال ليوم القيامة من طاعة أو معصية"(الطّوسيّ، ١٤٠٩هـ، ٩/٥٧١) وقد وردت (نفس) في سياق الأمر التّحذيريّ نكرة؛ للدلالة على العموم أيّ (كلّ نفس) يجب أن تنظر ماذا تقدّم لغدٍ من أعمال (ينظر ابن عاشور، ١٤٢٠هـ، ٢٨/٩٩).

أمَّا الحديث الشّريف يترجم دعوة الآية القرآنيّة بأسلوب موجز يعمّق معنى الإصلاح الذّاتيّ ومحاسبة النّفس، محولاً إيّاها تطبيقًا عمليًّا مستمرًا لمفهوم الإصلاح الذّاتيّ وتذكّر يوم الحساب.

ومن الأحاديث النّبويّة الّتي تمتصّ المعنى القرآنيّ، ثّم توسّع الدّلالة القرآنيّة، قوله (ﷺ): "زَينُ أُمَّتي في حُسنِ السَّمْتِ"(حكم النّبيّ: ٤/٢٩٧)، إذ يتناصّ تناصًّا غير مباشر مع قوله تعالى: ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح:٢٩).

إنَّ الحديث النّبويّ في هذا الشّاهد يستمدّ معناه العامّ، وفكرته الجوهريّة من القرآن الكريم؛ ليعيد الحديث إنتاج المعنى القرآنيّ نفسه؛ ولكن بصياغة جديدة، مع التّوسّع في دلالة النّصّ القرآنيّ.

فالآية الكريمة تصف وجوه المؤمنين السّاجدين الّتي يظهر عليها نور الإيمان الدّاخليّ، و"الصّفاء والإشراق الّذي يحدث بالوجه من أثر العبادة...لأنَّ العبادة الخالصة لوجهه تعالى تحدث في نفس العابد المخلص طهرًا وصفاءً، تظهر دلائله على صفحات الوجه تمامًا كما تظهر عليه دلائل الحزن والفرح"(محمّد جواد مغنية، ١٩٨١، ٧/١٠٣).

أمَّا الحديث الشّريف، فيقتبس الفكرة ذاتها؛ ليعيد إنتاجها بتعبير دلاليّ دقيق ومعانٍ مكثّفة، مع توّسع المفهوم القرآنيّ؛ ليشمل مظهر المؤمن الخارجيّ، الّذي هو انعكاس للإيمان الدّاخليّ له. مترجمًا لنا هذا المفهوم القرآنيّ إلى سلوك اجتماعيّ يميّز الأمّة الإسلاميّة من غيرها.

إنَّ الآية المباركة تصف جزءًا من العبادة (أثر السّجود) بينما الحديث الشّريف يوسّع دلالة النّصّ عن طريق تحويل ذلك الوصف إلى صورة كلّيّة تظهر الجمال الإيمانيّ للأمّة الإسلاميّة. إنَّ النّصّين كليهما قد صرّحَ عن المعنى بأسلوب موجز، وبيّنا عن طريقه العلامة الّتي تُظهر النّور الإيمانيّ، ذلك النّور الّذي يكون من الله عزّ وجلّ ويخصّ به عباده

المؤمنين (ينظر: الطّبرانيّ، ٢٠٠٨م، ٦/٦٧). وهذه العلامة تتمثّل بلغة رمزيّة (السّيما، السّمت) الّتي تُميّز العبد المؤمن وتزيّن أمّة رسول الله.

ومن الأحاديث النّبويّة ما يحمل التّناصّ فيها تفسيرًا للنّصّ القرآنيّ، نحو قوله (ﷺ) : "إنَّ النّاسَ يَصِيرُونَ يَومَ القِيامَةِ جُثىً. كُلُّ أُمَّةٍ تَتبَعُ نَبِيَّها، يَقولونَ: يا فُلانُ، اشفَع، يا فُلانُ، اشفَع، حتّى تَنتَهِيَ الشَّفاعَةُ إلى محمّدٍ، فذلكَ يَومُ يَبعَثُهُ الله المَقامَ المَحمودَ"(حكم النّبيّ: ٢/٥٤٦)، فالحديث الشّريف يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء:٧٩).

فالتّناصّ بين الحديث النّبويّ والآية القرآنيّة تناصًّا بالمعنى، وإن تكرّرت بعض الألفاظ؛ لكن النّصّين يشتركان في معنى مركزيّ واحد، وهو بيان مقام الشّفاعة (المقام المحمود) الّذي خصّ الله تبارك وتعالى به نبيه محمّد (ﷺ) تشريفًا له في يوم العرض الأكبر.

إنَّ القرآن الكريم يجمل المعنى بأسلوب إخباريّ يحمل في تضاعيفه بشارة وتشريف للرّسول الكريم، تتمثّل بالمقام المحمود الّذي وعده الله به؛ ولكن النّصّ القرآنيّ لم يفصّل تلك البشارة أو يحدّد طبيعة المقام الّذي بشّره الله به.

بينما الحديث النّبويّ يتفاعل مع النّصّ القرآنيّ؛ ليفصّل ذلك الإجمال بأسلوب وصفيّ؛ وليقدّم تفسيرًا يوضّح حقيقة تلك البشارة المتمثّلة بالمقام المحمود، وهو مقام "يقومه (ص) يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربّهم من عظيم ما هم فيه من شدّة ذلك اليوم"(الطّبريّ، ١٩٩٥م، ١٥/١٧٩). فالحديث الشّريف يوضّح لنا مضمون الآية وطبيعة المقام بأنّه مقام شفاعة يكون الرّسول (ﷺ) فيه شفيعًا بين الأنبياء يوم القيامة (ينظر: الزّجّاج،١٩٩٨م، ٣/٢٥٦).

ومن شواهد التّناصّ الّتي يوجز الحديث الشّريف فيه العبارة القرآنيّة، مع الحفاظ على المعنى القرآنيّ، قوله(ﷺ):

"شَرُّ المَآكِلِ أكلُ مالِ اليتيمِ ظُلماً"(حكم النّبيّ: ٧/٦٢٩)، إذ إنَّ الحديث الشّريف يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النّساء: ١٠).

فالحديث النّبويّ يشترك مع الآية الكريمة في وحدة المقصد والموضوع. فكلاهما يتضمّن تحذيرًا شديدًا من التّجاوز بغير حقّ على مال اليتيم.

إذ وضّحت الآية المباركة عقوبة آكل مال اليتيم في الآخرة، وهي النّار الّتي "ستلتهب من أفواههم، وأسماعهم، وآنافهم يوم القيامة، ليعلم أهل الموقف أنّهم أكلة أموال اليتامى"(الطّبرسيّ، ١٩٩٥م، ٣/٢٧).

أمَّا الحديث الشّريف، فيمتصّ المعنى القرآنيّ؛ ليعيد صياغته بعبارة مباشرة وموجزة (شرّ المآكل)؛ تقبّح هذا الفعل دون الغور في تفاصيل العقوبة الأخرويّة؛ وتقدّم قاعدة أخلاقيّة يوجز من خلالها الحديث دلالة النّصّ القرآنيّ. فالحديث مارس تحوّلاً بلاغيًّا نقل فيه التّفصيل الّذي أحتوته الآية القرآنيّة المباركة إلى إيجاز كثّف فيه الفكرة مع محافظته على المعنى القرآنيّ.

فالتّناصّ يبيّن لنا أن اللّغة النّبويّة هي إمتداد للغة القرآن الكريم. إذ تستعمل اللّغة النّبويّة المعاني ذاتها لتعيد صياغتها في سياقات أخرى تهدف إلى إصلاح اجتماعيّ أو تربويّ.

ومن الأحاديث النّبويّة الّتي تتناصّ مع القرآن الكريم فتحوّل المعنى القرآنيّ من أسلوب إلى آخر، قوله ص "لَيسَ مِنّا مَن خَانَ بالأمانَةِ"(حكم النّبيّ: ٤/٦٥٢)، إذ يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

يتناصّ الحديث الشّريف مع النّصّ القرآنيّ تناصًّا غير مباشر. فكلا النّصّين يشتركان في التّأكيد على صون الأمانة وحفظها، والتّحذير من خيانتها؛ لأنّ خيانة الأمانة سلوك غير أخلاقيّ يؤدّي إلى مخاطر تؤثّر على القيم الدّينيّة والاجتماعيّة. فالأمانة لها "شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، ما ثبتوا عليها وتخلّقوا بها، وهي دليل نزاهة النّفس واعتدال أعمالها"(ابن عاشور،١٤٢٠هـ، ٩/٧٧).

استعمل القرآن الكريم للتحذير من خيانة الأمانة صيغة النّهي (لا تخونوا)؛ ليحذّر المسلمين "من العصيان الخفي. بعد أن أمرهم بالطّاعة والاستجابة لله ولرسوله"(ابن عاشور،١٤٢٠، ٩/٧٥)، مشيرًا بهذا التّحذير إلى أنَّ الأمانة لا تقتصر على السّلوك الدّنيويّ فحسب، وإنّما الأمانة قد تكون أمر مضمر في قلب الإنسان ترتبط بتكليف إلهيّ؛ لأنّ "خيانتهم الله ورسوله، كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله (ﷺ) والمؤمنين الإيمانَ في الظّاهر والنّصيحةَ، وهو يستسرُّ الكفر والغشّ لهم في الباطن"(الطّبريّ، ١٩٩٥م، ١/٤٨٠).

أمّا الحديث الشّريف، فيستلهم المعنى القرآنيّ؛ ليعيد صياغته بمفهوم تحذيريّ موجز، جاعلًا الأمانة الحدّ الفاصل بين المؤمن وغير المؤمن. مركّزًا على الجانب الأخلاقيّ والاجتماعيّ عن طريق تحوّل المعنى من النّهي إلى التّبرؤ من الخائن، وعدّه خارج منظومة القيم الإيمانيّة؛ لأنّ الرّسول (ﷺ) جعل الأمانة علامة على الإيمان (ينظر:ابن عاشور،١٤٢٠هـ، ٩/٧٧).

ومن النّصوص النّبويّة الّتي تشترك في الوصف والمعنى مع النّصّ القرآنيّ، قوله ص: "يَقومُ آكِلُ الرّبا مِن قَبرِهِ مَكتوبٌ بينَ عَينَيهِ : لا حُجَّةَ لَهُ عندَ اللهِ"(حكم النّبيّ: ٤/٦٦٥) إذ يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا ﴾(البقرة: ٢٧٥).

إنَّ النّصّين كليهما يشتركان في المعنى ذاته، الّذي يدور حول التّحذير من الرّبا؛ لأنّه يعدّ من كبائر الذّنوب. وكلاهما يشتركان أيضاً في وصف قيام آكل الرّبا يوم القيامة. وهذا الاشتراك بين النّصّين يدلّ على وحدة الخطاب الدّينيّ بين النّصّين، وهذه الوحدة تعزّز التّناصّ بين النّصّين.

فالآية القرآنيّة تصف لنا آكل الرّبا يوم العرض الأكبر بصورة حسّيّة، وكأنَّه قد مُسّ من الشّياطين، إشارة إلى الاضطراب والذّلّ الّذي يكون عليه، وهذه هي "علامة أكلة الرّبا، يعرفون بها يوم القيامة"(الطّبرانيّ،٢٠٠٨م، ١/٤٩٣) وهذه الصّورة تكون "عند قيامهم من قبورهم، فيلحقهم العثار والزّلل والتّخبّل على سبيل العقوبة لهم"(الشّريف المرتضى،١٤٣١هـ، ٥٥٨).

أمّا الحديث الشّريف، فيتفاعل مع النّصّ القرآنيّ مستحضرًا المعنى ذاته؛ ليعيد توظيفه بأسلوب بيانيّ جديد، يصف فيه موقف (آكل الرّبا) يوم الحساب بوصفٍ مخزٍ ومذلٍّ. إذ يُكتب على جبينه علامة (لاحجّة له عند الله)، تجسّد عقوبته الأخرويّة المذلّة.

ومن جملة الأحاديث الّتي احتوت على تناصّ غير مباشر حوّل المعنى القرآنيّ من التّفصيل إلى التّعميم الموجز، قوله (ﷺ): "إنَّ اللهَ تعالى حَدَّ لَكُم حُدوداً فلا تَعْتَدُوها"(حكم النّبيّ: ٦/٥٥٣)، إذ يتناصّ مع قوله جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (النّساء: ١٤).

إنَّ التّناصّ بين الحديث الشّريف والآية الكريمة تناصًّا بالمعنى، فكلا النّصّين يشتركان في معنى واحد، وهو التّحذير من تعدّي حدود الله، والحثّ على الالتزام بها. وتعدّي الحدود وتجاوزها يكون بتجاوز "فصول طاعته الّتي جعلها تعالى فاصلة بينها وبين معصيته"(الطّبريّ، ١٩٩٥م، ٨/٧١).

إنَّ الآية الكريمة تفصّل المعنى القرآنيّ لتبيّن دلالته. إذ تذكر في بدايتها نوع السّلوك المُحذّر منه، ثمّ توضّح العقوبة الأخرويّة المرتبطة بهذا السّلوك، لتنتقل بعد ذلك لتصف لنا تلك العقوبة بصفة العذاب المهين، موضّحةً عن طريق هذا الوصف أنَّ هذه العقوبة ليست جسديّة فحسب، إنّما هي عقوبة معنويّة مذلّة. واستعمال هذه الصّفة المذّلة لوصف جزاء هذا العمل كان لها الأثر الأكبر في نفوس المتلقين؛ لأنّ "العرب أباة الضّيم، شمّ الأنوف، فقد يحذرون الإهانة أكثر ممّا يحذرون عذاب النّار"(ابن عاشور، ١٤٢٠هـ، ٤/٥٥).

فالحديث الشّريف استحضر ذلك المعنى القرآنيّ، ووظّفه في سياق وأسلوب جديدين، وجّه من خلالهما تحذيرًا أخلاقيًّا من التّجاوز على حدود الله، بعبارة موجزة وبليغة، انتقل فيها إلى التّعميم، الّذي اختصر من خلاله تفصيل الآية الكريمة، عن طريق استعمال صيغة جامعة موجزة (حدّ لكم حدودًا) شملت كلّ ما نهى الله تعالى عنه، وحثّت على على الوقاية من هذا العمل. فقد برّز لنا ذلك الانتقال والإيجاز البعد التّربويّ في الحديث الشّريف.

إنَّ التّحوّل البلاغيّ من التّفصيل في الآية القرآنيّة إلى التّعميم الموجز مع الحفاظ على المعنى الجوهريّ المتمثّل بالتّحذير من معصية الله بتجاوز حدوده. أثبت أنّ اللّغة النّبويّة هي إمتداد بلاغيّ وبيانيّ للغة القرآن الكريم.

ومن أمثلة الأحاديث المتناصّة مع القرآن الكريم، ما يوضّح فيه التّناصّ جمال النّصّ القرآنيّ وبيان الحديث النّبويّ، قوله: (ﷺ): "إنَّ اللهَ حَرَّمَ الغِيبَةَ كما حَرَّمَ المالَ والدّمَ"(حكم النّبيّ: ٥/٧٣)، إذ يتناصّ الحديث الشّريف مع قوله تبارك وتعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾(الحجرات: ١٢).

فالتّناصّ بين الحديث النّبويّ والنّصّ القرآني تناصّ بالمعنى (غير مباشر). إذ يشترك النّصّان في المعنى ذاته وهو تحريم الغيبة والنّهي عنها، والغيبة "أن يذكر الإنسان من خلفه بسوء وإن كان فيه السّوء"(الزّجّاج، ١٩٨٨م، ٥/٣٧).

إنَّ النّصّ القرآنيّ يقدّم صورة مجازيّة بليغة (أكل لحم الميّت)، تحمل في طياتها معنى جوهريّ، يدلّ على "أنَّ من دعي إلى أكل لحم أخيه فعافته نفسه، فكرهته من جهة طبعه، فإنَّه ينبغي إذا دعي إلى عيب أخيه فعافته نفسه من جهة عقله، فينبغي أن يكرهه؛ لأنَّ داعي العقل أحقّ بأن يتّبع من داعي الطّبع؛ لأنَّ داعي الطّبع أعمى وداعي العقل بصير"(الطّوسيّ، ١٤٠٩هـ، ٩/٣٥٠)، فهذه الصّورة المجازيّة أحدثت صدمة ورهبة للمتلقّي جعلته يمتنع عن الغيبة، كما يمتنع عن أكل لحم الميّت.

أمَّا الحديث الشّريف، فيستحضر المعنى التّشريعيّ والأخلاقيّ من النّصّ القرآنيّ؛ ليعيد إنتاجه بلغة موجزة ترسّخ حرمة الغيبة في نفوس المتلقين، محولاً الصّورة المجازيّة إلى بيان نبويّ تشريعيّ مباشر متمثّل بقوله (ﷺ): (إنَّ اللهَ حَرَّمَ الغِيبَةَ). إذ يتّجه الحديث للإيجاز فلا يصف بشاعة هذا السّلوك. وإنّما يتّجه لوضعه في دائرة المحرمات مساويًّا له بحرمة سفك الدّماء، ونهب الأموال.

فالتّناص بين النّصّين يرسم صورة جوهريّة متكاملة يوضّح فيها جمال النّصّ القرآنيّ في استعمال الصّورة المجازيّة، وبيان الحديث النّبويّ في وضعه قاعدة تشريعيّة تنهي عن هذا العمل.

المبحث الثّاني: (التّناصّ المباشر):

إنَّ اقتطاع النّصوص القرآنيّة من سياقاتها الّتي وردت فيها وتوظيفها في بيئة نصّيّة أخرى، وسياقات جديدة، لا يكون ذلك بطريقة عشوائيّة، وإنّما المبدع هو الّذي يوجّه النّصّ الحاضر إلى التّعالق والتّفاعل مع النّصّ القرآنيّ. ممّا يجعل

النّصّ الحاضر غنيًا بالمعاني العميقة المتّسعة في دلالاتها؛ لأنّ النّصّ القرآنيّ المقتبس يحمل ثراءً لغويًّا وثقافيًّا ضخمًا (ينظر: الغذاميّ، ١٩٩٨م، ١٥).

فالرّسول (ﷺ) عندما يوظّف النّص القرآنيّ كان مدركًا أثره في خدمة حديثه الشّريف؛ لأنَّ النّصّ القرآنيّ يجعل الاتّصال مع المتلقّي اتّصالًا مقدّسًا زاخرًا بمعاني القرآن الكريم، فمن أمثلة ذلك قوله ص: "ما كُنتُ لأَلقَى اللهَ عزّ وجلّ ببِدعَةٍ لم يُحدِثْ إلَيَّ فيها شيئاً ومَا أنا مِن المُتَكَلِّفِينَ"(حكم النّبيّ: ٥/١١٩) فالحديث النّبويّ يتناصّ تناصًّا مباشراً مع قوله تعالى: ﴿وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص : ٨٦).

إنَّ النّصّ القرآنيّ ينفي الابتداع والتّكلّف عن الرّسول الكريم(ﷺ)؛ لأنّ التّكلّف هو "ما يشقّ على المرء عمله والتزامه لكونه يحرجه أو يشق عليه ... فالمتكلّف هو الّذي يتطلّب ما ليس له أو يدعي علم ما لا يعلمه. فالمعنى هنا: ما أنا بمدّع النبوءة باطلًا من غير أن يوحى إليّ"(ابن عاشور، ١٤٢٠هـ، ٢٣:١٩٦).

استعمل الرّسول الكريم(ﷺ) في حديثه التّركيب القرآنيّ ذاته، مع بقاء الدّلالة القرآنيّة، إذ أضفى الاستعمال النّبويّ للنّصّ القرآنيّ قدسيّة على الحديث الشّريف عن طريق إسناد الحديث إلى مرجعيّة إلهيّة، وهذه القدسيّة تُشعر المتلقّي بروح الوحي في النّصّ النّبويّ.

كما أضاف النّصّ النّبويّ مفهومًا عمليًّا للمعنى القرآنيّ عن طريق الرّبط بين نفي التّكلّف عن الرّسول (ﷺ) ونفي ابتداع الرّسول (ﷺ) للأمور الدّينيّة. فضلًا عن ذلك فإنّ الاقتباس القرآنيّ أدّى وظيفة توكيديّة للحديث الشّريف، فقد أكّد صدق الموقف النّبويّ عند نفيه الابتداع والتّكلّف. ممّا منح النّصّ النّبويّ قوّة بلاغيّة تنبع من روح القرآن الكريم.

إنَّ التّناصّ يعكس الصّورة الانسجاميّة بين الحديث النّبويّ والنّصّ القرآنيّ على المستوى اللّغويّ والإسلوبيّ، فانسجام النّصّ القرآنيّ داخل البنية التّركيبيّة للحديث الشّريف يؤكّد لنا مدى تأثّر اللّغة النّبويّة بلغة القرآن الكريم.

ومن الأحاديث الّتي اقتبست نصوص قرآنيّة مباشرة، وحافظت على المعنى القرآنيّ، قوله (ﷺ) : "يا أَبا ذَرٍّ: إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَم يُوحِ إلَيَّ أَن أَجمَعَ المالَ، وَلَكِن أَوحى إلَيَّ أَن فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِنَ السَّجِدِينَ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ"(حكم النّبيّ: ٧/٦٠٢)، إنَّ الحديث يتناصّ تناصًّا قرآنيًّا مباشراً، إذ اقتبس الرّسول الكريم (ﷺ) في الجزء الأخير من حديثه نصّ الآيتين الكريمتين: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر: ٩٨-٩٩).

فقد اشترك النّصّان في الحثّ على الاستمرار بالعبادة والطّاعة لله عزّ وجلّ، والتّسبيح له وحده، وترك التّرف الدّنيويّ، وجمع المال، وغيرها من الملذات الّتي تُشغل العبد عن ذكر الله.

فالنّصّ القرآنيّ يخاطب النّبيّ الأعظم(ﷺ) أن يتوجّه بالشّكر والصّلاة والثّناء لله وحده، وأن يستمر بالعبادة والطّاعة إلى أن يأتيه الموت (ينظر:الطّبريّ، ١٩٩٥م، ١٤/٩٩، وينظر:النّحّاس، ١٤٠٩هـ، ٤/٤٧).

أمّا الحديث الشّريف، فيستحضر معنى وقصديّة النّصّ القرآنيّ؛ ليؤكّد على جوهر العبادة وترك التّرف الدّنيويّ. حاملًا بذلك سلوكًا أخلاقيًّا وتربويًّا واجتماعيًّا يدعو فيه إلى التّقوى والورع والزّهد في الدّنيا.

كما أنَّ حضور النّصّ القرآنيّ بوضوح دون تغيير، وانسجامه داخل الخطاب النّبويّ، يعكس لنا تأثّر الخطاب النّبويّ بلغة القرآن الكريم على مستوى التّراكيب والدّلالة والإيقاع.

ومن جملة تلك الأحاديث، قوله ص: "إنَّ الرِّزقَ لَيَنزِلُ مِنَ السَّماءِ إلَى الأَرْضِ، عَلى عَدَدِ قَطرِ المَطَرِ، إلى كُلِّ نَفسٍ بِما قُدِّرَ لَها. ولكِن للهِ فُضولُ. فَاسألُوا اللهَ مِن فَضلِهِ"(حكم النّبيّ: ٥/٣٦٩) فالحديث المبارك يتناصّ مع قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلا

تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (النّساء: ٣٢).

إنَّ التّناصّ بين النّصّين تناصّ مباشر يتطابق فيه اللّفظ والمعنى في آنٍ واحد. فالحديث يستعير العبارة القرآنيّة: (وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)؛ ليعيد توظيفها في سياق جديد محافظاً على المعنى القرآنيّ ذاته، الّذي يدور حول الإيمان المطلق بتقدير الله عزّ وجلّ للأرزاق، والحثّ على الاعتماد على الرّزّاق سبحانه والتّوسّل به لطلب العون والرّزق، وعدم التّطلّع للآخرين بالتّمني والحسد (ينظر: الهرويّ، ١٣٨٤هـ، ١٤/٢، وينظر: النّحّاس،١٤٠٩هـ، ٢/٧٣، وينظر: الطّبرسيّ، ١٩٩٥م، ١/٢٩٥).

إنَّ الحديث يغرس في نفوس المتلقين عمق الإيمان بقضاء الله وقدره، والقناعة بما قسّمه الله، مستعملاً صورة حسّيّة يشبّه فيها الرّزق بنزول المطر في قوله: (الرِّزقَ لَيَنزِلُ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ، عَلى عَدَدِ قَطرِ المَطَرِ)، فقد حوّلت هذه الصّورة الحسّيّة الدّلالة القرآنيّة المجردة إلى دلالة محسوسة تتّسم بالحركة والإيحاء، رسّخت المعنى في ذهن المتلقّي.

منح تناصّ الحديث النّبويّ مع النّصّ القرآنيّ قوّة بلاغيّة تكشف لنا عمق تأثّر اللّغة النّبويّة بالقرآن الكريم. وأضفى التّداخل النّصّيّ هذا بعدًا معنويًّا، فقد منح النّصّ النّبويّ تصديقًا لحديثه بوصفه إمتداد لخطاب الوحي.

ومن النّصوص النّبويّة الّتي تضمّنت اقتباسًا قرآنيًّا مباشرًا، حوّلت فيه الخطاب من عامّ إلى فرديّ مع الحفاظ على المعنى القرآنيّ، قوله (ﷺ): "يا عليُّ، لا تَحْلِفْ باللهِ كاذِباً ولا صادِقاً مِن غَيرِ ضَرورَةٍ، ولا تَجْعَلِ اللهَ عُرْضَةً لِيَمينِكَ؛ فإنّ الله لا يَرحَمُ ولا يَرعى مَن حَلَفَ باسمِهِ كاذِباً"(حكم النّبيّ: ٤/٦٤١)، إذ استعار الحديث النّبويّ العبارة القرآنيّة من النّصّ القرآنيّ : ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٢٤).

إنَّ النّصّين كليهما يشتركان في الفكرة ذاتها مع اختلاف المقام والمخَاطب، وهي الدّعوة إلى حفظ وصون اسم الله من الحلف الباطل، والتّحذير من الحلف في غير حاجة.

إنَّ الحديث يعيد إنتاج المعنى القرآنيّ في سياق جديد يتضمّن أبعاد تربويّة وأخلاقيّة، عن طريق تحويل المعنى العام في النّصّ القرآنيّ إلى توجيه فرديّ، إذ يتوجّه الرّسول (ﷺ) بالنّصح والإرشاد والتّزكية الأخلاقيّة إلى الإمام عليّ (عليه السلام) مؤكّدا على المعنى القرآنيّ الّذي يحثّ على تجنب الحلف بالله، ويحذّر من التّهاون مع اسم الله العظيم.

فالحديث الشّريف يستدعي النّصّ القرآنيّ بوصفه مرجعيّة تشريعيّة إلهيّة مؤكّدًا بذلك الاستدعاء المعنى القرآنيّ ذاته، ثمّ يوسّع لنا الدّلالة القرآنيّة عن طريق النّهي عن الحلف بالله في حال الصّدق مع اشتراط عدم وجود ضرورة للحلف، فهذا التّوسّع الدّلاليّ يبيّن لنا قوّة اللّغة النّبويّة وقدرتها على توظيف النّصّوص القرآنيّة داخل سياقات جديدة تتضمّن أبعادًا تربويّة وأخلاقيّة.

ومن النّصوص النّبويّة المتناصّة مع القرآن الكريم، الّتي اتسمت بالإيجاز والتّفسير للنّصّ القرآنيّ، قوله (ﷺ) : "لن يَغلِبَ عُسرَ يُسرَينِ، إنَّ مَعَ العُسرِ يُسراً إنَّ مَعَ العُسرِ يُسراً"(حكم النّبيّ: ٣/٥٩٦)، إذ يعدّ التّناصّ في الحديث تناصّا مباشرًا محضًا مع قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾(الشّرح: ٥-٦).

فالحديث الشّريف يقتبس النّصّ القرآنيّ حرفيًّا من سورة الشّرح، مع تقديم عبارة تفسيريّة في بداية الحديث (لن يغلب عسر يسرين)، أسهمت هذه العبارة في إبانة المعنى الخفي للآية الكريمة، وفسّرته بأسلوب نبويّ دون أن يعرض أو يؤسّس لمعنى جديد، والمعنى "أنَّ نعم الله تعالى، وهي اليسر أكثر من الشّدائد، وهي العسر"(النّحّاس، ١٤٠٩هـ، ٥/١٥٧).

إنّ هذا الاقتباس يؤكّد المعنى القرآنيّ بأسلوب يفسّر الوعد الإلهيّ الّذي يبيّن أنَّ كلّ شدّة وعسر معها فرج ويسر من الله تبارك وتعالى. وأنّ العسر الواحد يرافقه يسران لغلبته؛ "لأنَّه حمل العسر في الآيتين على أنَّه واحد لكونها بالألف واللّام، واليسر منكر في تثنية الفائدة، والثّاني غير الأوّل، والعسر صعوبة الأمر وشدته، واليسر سهولته"(الطّوسيّ، ١٤٠٩م، ١٠/٣٧٣) وهذا الصّورة الإعجازيّة رسمت طمأنينة وسكينة في نفس متلقّي النّصّ.

الخاتمة ونتائج البحث:

١- إنَّ التّناصّ يكشف لنا مدى تأثّر الحديث النّبويّ بلغة القرآن الكريم وتشرّبه بها.

٢- إنَّ اللّغة النّبويّة هي انعكاس للغة القرآن الكريم، إذ يقتبس الرّسول (ﷺ) المعاني القرآنيّة؛ ليعيد انتاجها بأساليب جديدة تتّسم بالجدّة والإيجاز، محافظًا على المعنى القرآنيّ ذاته، وعلى جزالة اللّفظة القرآنيّة وفصاحتها.

٣- إنَّ التّناصّ المباشر مع النّصّ القرآنيّ أضفى قدسيّة على الحديث الشّريف، جلعت من أحاديثه (ﷺ) ذات تأثير عالٍ في نفوس المتلقين.

٤- إنَّ انسجام النّصوص القرآنيّة داخل الحديث الشّريف يكشف لنا عمق بلاغته، ومقدرته اللّغويّة على توظيف النّصّ القرآنيّ في تضاعيف حديثه ص.

٥- يكشف لنا التّناصّ حجم الثّراء اللّغويّ الّذي تحمله اللّغة النّبويّة نتيجة لتأثّره بلغة القرآن الكريم.

٦- إنَّ التّناصّ بين الحديث النّبويّ والكتب السّماويّة يكشف لنا المعاني والدّلالات المشتركة بينهما؛ لكون هذه النّصوص المتناصّة تشترك في المصدر الإلهيّ ذاته.

٧- إنَّ الحديث الشّريف يتقاطع مع معاني النّصوص الدّينيّة السّابقة ليعيد انتاجها بأسلوب يجدّد فيه الخطاب وفق الرّؤية الإسلاميّة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١- أدوات النّصّ: محمّد تحريشي، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق،٢٠٠٠م.
٢- إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، مصطفى صادق الرّافعيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت-لبنان، ط٩، ١٩٧٣م.
٣- الأعمال المانعة من دخول الجنّة، محسن عقيل، دار المحجة البيضاء، ٢٠٠٦م.
٤- الإنجيل المقدّس، التّرجمة العربيّة المشتركة من اللّغة الأصليّة، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، بيروت-لبنان، ١٩٩٧م.
٥- البلاغة النّبويّة، محمّد رجب البيوميّ، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، ٢٠٠٨م.
٦- التّبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطّوسي (٤٦٠هـ)،ت أحمد حبيب قصير العامليّ، مكتبة الإعلام الإسلاميّ،ط١، ١٤٠٩هـ.
٧- التّحرير والتّنوير، محمّد الطّاهر ابن عاشور، مؤسسة التّاريخ العربيّ، لبنان- بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
٨- تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجية التّناصّ)، د. محمّد مفتاح، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م.
٩- تفسير القرآن الكريم، صدر الدّين محمد بن إبراهيم الشّيرازيّ (١٠٥٠هـ)، تحقيق خواجويّ محمّد، دار بيدار، قمّ، ط٢، ١٣٦١هـ.
١٠- التّفسير الكاشف، محمّد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٣، ١٩٨١م.
١١- التّفسير الكبير، سليمان بن أحمد الطّبرانيّ(٣٦٠هـ)، دار الكتاب الثّقافيّ، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
١٢- تفسير مجمع البيان، أبو علي الفضل بن الحسن الطّبرسيّ (٥٤٨هـ)، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان- بيروت، ط١، ١٤١٥- ١٩٩٥م.
١٣- التّناصّ سبيلاً إلى دراسة النّصّ الشّعريّ وغيره، شربل داغر، مجلة فصول، العدد رقم١ ، ١/ يناير/ ١٩٩٧م.
١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمّد بن جرير الطّبريّ(٣١٠هـ)، تحقيق صدقي جميل العطّار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٩٩٥م.
١٥- حكم النّبيّ الأعظم، محمّد الرّيشهريّ، دار الحديث، قمّ ، ١٤٢٩هـ.
١٦- الخطيئة والتّكفير من البنيويّة إلى التّشريحيّة(قراءة نقدية لنموذج معاصر)، د. عبد الله محمّد الغذاميّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط٤، ١٩٩٨م.
١٧- خلق المسلم، محمّد الغزاليّ، دار القلم، دمشق-سوريا، ١٤١٦هـ.
١٨- شرح أصول الكافي، مولي محمّد صالح المازندرانيّ (١٠٨١هـ)، تحقيق السّيد علي عاشور مع تعليقات الميرزا أبو الحسن الشّعرانبّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت- لبنان ، ط١، ٢٠٠٠م.
١٩- شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السّلام، شرح حسن السّيد على القبانچيّ، مؤسسة إسماعليان للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٦هـ.
٢٠- الصّناعتين (الشّعر والنّثر)، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (٣٩٥ هـ)، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
٢١- علم لغة النّصّ النّظريّة والتّطبيق، عزّة شبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.
٢٢- علم النّصّ، جوليا كريستيفا، ترجمة فريد الزّاهيّ، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٩١م.
٢٣- العهد القديم، ترجمة مجموعة من العلماء الكتابيين واللاهوتيين، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، لبنان، ١٩٩٦م.
٢٤- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلّام الهرويّ(٢٢٤هـ)، تحقيق محمّد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٣٨٤هـ.
٢٥- فيض القدير شرح الجامع الصّغير، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناويّ(١٠٣١هـ)، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٤م.

٢٦- في ظلال نهج البلاغة (محاولة لفهم جديد) محمّد جواد مغنية، وثّق أصوله سامي الغريريّ، مؤسسة دار الكتاب الإسلاميّ، ط١، ٢٠٠٥م.

٢٧- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانيّ، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

٢٨- الكافي، أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط٣.

٢٩- مختصر مجمع البيان، أبو علي الفضل بن الحسن الطّبرسيّ (٥٤٨هـ)، تحقيق جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقمّ، مؤسسة النّشر الإسلاميّ، إيران- قمّ، ط٣، ١٤١٣هـ.

٣٠- معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمّد النّحّاس (٣٣٨هـ)، تحقيق محمّد علي الصّابونيّ، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السعوديّة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٣١- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السّري بن السّهل الزّجّاج (٣١١هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٣٢- النّثر الصّوفيّ دراسة في لسانيات النّصّ، خالد حوير الشّمس، مركز الكتاب الأكاديميّ، عمان، ٢٠٢٠م.

٣٣- النّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٣٤- نظريّة التّناصّيّة، مارك دوبيازي، ترجمة الرّحوتيّ عبد الرحيم، مجلة علامات في النّقد، جزء ٢١، المجلد ٦، المملكة العربيّة السعوديّة، ١٩٩٦م.

٣٥- نظريّة علم النّصّ(رؤية منهجيّة في بناء النّصّ الشّعريّ)، حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٣٦- نفائس التّأويل، أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد الموسوي المعروف بالشّريف المرتضى (٤٣٦هـ)، تحقيق موسوي ومجتبى أحمد، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان- بيروت، ط١، ١٤٣١هـ.